صدر قديماً

غرائب المكتوبجي

سليم سركيس غايةُ النقد الإصلاحُ

في «غرائب المكتوبجي» (1896)، يوثّق الصحافي اللبناني واقع الصحافة السورية بعد صدور «قانون المطبوعات» العثماني، حيث فتحت مخاوف الحكومة الباب لمقص الرقيب

محمود منير

بعد إصدار السلطان العثماني، عبد العزيز الأوّل، التشريع الأوّل من نوعه في الدولة لتنظيم الصحافة في آب/ أغسطس عام 1865، تمتّعت الجرائد الصادرة في سورية ولبنان والعراق آنذاك بقدْرٍ معقول من الحرّيات لم يكن متوفراً لمطبوعات صدرت في سنوات سابقة وكان مصيرها التعثّر بسبب انتقادها سياسات الدولة.

لم يمضِ أكثر من عشر سنوات حتى واجهت الصحافة حملةً ممنهجة من التضييق مع تولّي السلطان عبد الحميد الثاني السلطةَ؛ حملةً تسبّبت في إغلاق معظمها، ما اضطر صحافيّين كثراً من بلاد الشام للانتقال إلى القاهرة، حيث نقلوا خبراتهم وساهموا برؤوس أموالهم في تأسيس عدد من المطابع، ما اعتبره مؤرّخون عاملاً أساسياً في نهضة الصحافة المصرية.

من بين هؤلاء كان الصحافي اللبناني سليم سركيس (1869 – 1926)، الذي وثّق تجربته في الصحافة ـ منذ أن كتب مقالاته الأولى وهو في الخامسة عشرة من عمره في مجلّة «الجنان» التي كان يترأس تحريرها سليم بطرس البستاني، ثم عمله في صحف صدرت في بيروت وباريس ولندن والإسكندرية ـ في كتاب بعنوان «غرائب المكتوبجي» صدر عن «مطبعة السلام» في العاصمة المصرية سنة 1896.

يفتتح المؤلّف كتابه بثلاثة أبيات للشاعر العباسي سليمان بن يزيد العدوي يقول في آخرها: «يا للرجال لداءٍ لا دواءَ له/ وقائدٍ ذي عمىً يقتاد عميانا»، مدوّناً عشرات الروايات التي جمعها حول المكتوبجي ـ مراقب الجرائد والصحف أيام العثمانيين ـ كما درج على تسميته آنذاك.

ويشير سركيس إلى أن سورية (بلاد الشام) كانت أقدم مكان ظهرت فيه الجرائد السياسية والعلمية في العهد العثماني، حيث الحرّية مطلقة لجرائد بيروت ولا مراقبة عليها، ودام الأمر على ذلك الحال إلى أن رأت الحكومة ضعفَها أمام تعدّد الصحف وميل الشعب السوري إلى المطالبة بحقوقه على صفحاتها.

ويُجمل سركيس نكباته التي توالت عليه، فهو، الذي وُلد في بيروت ، صار بحكم مولده من رعايا الدولة العثمانية في فترة تراجُعها، كما أن أهله أرسلوه إلى المدرسة حيث تلقّى شيئاً من العلم استحقّ أن يُشفق عليه الجاهل، كما يقول، مشيراً إلى أنه تعلّم الإنكليزية التي مكّنته من الاطّلاع على مؤلفات تدعو إلى الحرّية والتقدّم؛ ثم عُهدت إليه، بعد تخرّجه، إدارة تحرير جريدة «لسان الحال» مدّة ثماني سنوات، لكنّه لم يتمكن من ممارسة حرّيته في إدارتها؛ وبعد ذلك ارتحل إلى أوروبا فازداد تقديراً للحرّية، لكنّ ما لبث أن عاد إلى بيروت حتّى خضع من جديد لرقابة المكتوبجي.

يتتبّع سركيس عملية الرقابة منذ أن يكتب محرّر الجريدة العثمانية مقالات جريدته وتُرتّب حروفها وتُصلّح أغلاطها حتى تصير جاهزة للطبع والتوزيع، فتبعث الإدارة بنسختين منها إلى المكتوبجي، وعلى المطبعة والمحرّر والعمّال أن ينتظروا رجوع المسوّدة المذكورة التي تُرسَل عادة عند العاشرة صباحاً، قبل أن يبدؤوا الطبع بعد رجوعها في الثالثة أو الرابعة عصراً، لتعود وقد حُذفت منها عبارات ومقالات يضع المحرّر بديلاً عنها لتظلّ تروح وتجيء بينه وبين المكتوبجي حتى يوافق الأخير على المسودة النهائية بوضع توقيعه الذي لا يحول أيضاً دون إيقاف الجريدة بعد طباعتها إذا ما صدر أمرٌ بذلك من الآستانة.

ومن الغرائب التي يوردها الكتاب، تغييره كلمات مثل «مرادي» إلى «حبيبي»، و«خلعت» إلى «تركت»، و«خليع» إلى «بدون»، و«عدول» إلى «رقيب» في نشر خبر نشرته جريدة «المشير» في عددها السابع والثلاثين عن أبيات أنشدها عبده الحاموني في حفل أقيم في حضرة السلطان بإسطنبول، حيث اعترض المكتوبجي على مفردات لم يعترض عليها السلطان ذاته.

وفي إعلان نشرته جريدة «المصباح» يأتي فيه أن «قطعة الأرض المشتملة على بيت مؤلّف من أربع أوض (غرف) ومطبخ ودار ملك محمد علي الطرابلسي معدّة للأجرة، وعلى الراغبين مخابرة صاحبها»، ما كان من المكتوبجي إلّا أن رفض استخدام كلمة «ملك» التي لا تُستخدم من وجهة نظره إلّا للحديث عن السلطان، ليصبح الإعلان: «إن دار الإمبراطور محمد علي الطرابلسي معدّة للإيجار»، ولم تفلح كلّ المحاولات لثنيه عن جهله.

وعلى غرارها، منع الرقيب نشر أخبار عن شخصيات تحمل كُنىً مثل «سلطاني» و«ملّوك» واستبدلها بـ«سلطا» و«مالوك»؛ أو حذف عبارات رثاء لأحد أفراد عائلة «كرم» لأنه رأى أن ذلك من شأنه أن يُبكي القرّاء وأن هذا ليس من واجبات الصحافي؛ وكذلك كلمة «الحركة» في كتاب ليوسف حرفوش تضمّن أمثالاً باللغتين الفرنسية والعربية، ومنها مثل «الحركة فيها بركة» لأنه اعتبر أن الحركة تفيد «الثورة».

ويذكر المؤلّف أن صحف بيروت نشرت مقالات لشخصيات نسائية قبل أن يوقف المكتوبجي نشر أيّ مقال موقّع باسم امرأة، لأن «ذلك يفتح عقولهنّ أكثر من اللازم». وفي طرفة أخرى تتعلّق بمنعه ذكر كلمة «مدرسة» وتغييرها كلّما وردت إلى «مكتب»، أن الرقيب استبدل مدينة مدراس في مقال حول الهند إلى كلمة «مكتب» أيضاً! في خاتمة الكتاب الذي عدّ أربعاً وخمسين غريبة، يرفض سركيس الاتهامات الموجّهة إليه بالخيانة والرغبة بالانتقام من المكتوبجي، بقوله «إنني غير خائن، فصديقك مَن صدّقك لا مَن صدّقك. وإنني لا أطعن على دولتي حبّاً بسواها بل غيرة عليها ورغبةً في إصلاحها، وإن حكومة بيروت تعتبرني، وإنني كنت في بلادي محلّ رضى الحكّام وثقتهم».

سليم سركيس (رسم السن عوض، العربي الجديد)

منع المكتوبجي نشر مقالات لشخصيات نسائية في الجرائد

سورية كانت أقدم مكان ظهرت فيه الجرائد في العهد العثماني

قلمٌ لاذع يزعج السلطات

تمتلئ سيرة سليم سركيس بالحكايا التي تُلامس في بعض الأحيان الصياغة البنائية للأسطورة، لكنها تأتي أيضاً في قالب من السخرية السوداء الذي يُشبه سخريته كصحافيّ. إذ نعرف، مثلاً، من كُتب السيرة حوله، أنه اعتُقل من قبل رجال الخديوي في يوم زفافه، كما نقرأ قصصاً عن تعرّضه لـ«مَلفّة» من قبل السلطات العثمانية. الشيء الوحيد غير الأسطوري، كما يبدو اليوم، هو أنه كان صاحب قلم يزعج السلطات، إن كان في بيروت أو مصر.

تدويب

بسوءٍ أقلّ

باسم النبريص

أُعيّد على عبد الفتّاح، السوداني من أم درمان، وهو جالس على الطاولة الخشبية، مع تيريزا وإيداليا وأليكس (من السلفادور وفنزويلا).

أتمنّى له أن يأتي عيد الفطر القادم، وهو حاصلٌ على الورق. يتمنّى لي بالمثل، ويضحك: «والله، يا زول، هذا العيد من أتعس ما يمكن. أعان الله الناس».

فأرد: «الصبر. الصبر يا عبد الفتّاح، فالخيّم هو زمن الشدائد عند اللاجئ؛ وبعده تروق الأمور، بالحصول على ورق، وتحلو».

وأتضاحك مع أليكس الفنزويلي وأنا أخبره، بلغته، أن للمسلمين عيدين فقط طوال السنة. فيقول إن لدينا الكثير الكثير من الأعياد، كلّ دولة لاتينية على حدة، أمّا هنا، فلا عيد للروبوتات، مع أنهم ـ أذكّره ـ في خِضمّ عيد الصعود الآن.

أليكس يسخر من البلجيك، لأنه تلقّى الرفض، وهو استأنف عند المحامي، وينتظر قدَرَه.

عبد الفتّاح يتسحب لكي يكلّم الوالدة في الغرفة، وأكمل أنا بقية سيجارتي، بينما تريزا وإيداليا تبتسمان وتتكلّمان عن البنت أليسا. وما فعلته، أمس، بعشيقها خوسيه فرناندو أليساندرو بابيكا.

صباح الخير وكلّ عام والفقراء بسوءٍ أقلّ، وأسماء أقصَر.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

متابعة

مسك إغلاق ملاذٍ للهاربين من صخَب تونس

خطّ النهاية لحلم موسيقيّ

لا تقف الأسباب الاقتصادية وحدها وراء إغلاق الإذاعة الموسيقية في تونس، كما يبدو في ظاهر الأمر. هناك بيئة عامة لا يمكن أن تعيش فيها مشاريع كهذه

تونس ـ **ليلى بن صالح**

لسنوات، كان كثيرون من سكّان مدينة تونس يتنقّلون بين محطّات الراديو، في بيوتهم أو سياراتهم، فلا يعجبهم شيء، ثمّ يستقرّون عند الإذاعة الموسيقية «مسك»، فراراً من بقية المحطات التي لا تهدأ فيها سجالات السياسة والمجتمع، وكثيراً ما تسقط في التهريج والتفاهة.

لم يعد ذلك ممكناً منذ يوم الأربعاء 19 كانون الثاني/ يناير الجاري، فقد أُعلن إغلاق المحطة الإذاعية، يومها، تداولت مواقع التواصل الاجتماعي تدوينةً أحد أشهر أصوات القناة، جيهان التركي، التي كتبت: «كان حلماً بإذاعة ثقافة وموسيقى، بدأناها بكثير من المحبّة وقد عرفنا الناس من خلال الموسيقى». وتضيف في نبرة جمعت بين السخرية والمرارة: «كثيرون أحبّوا «مسك»، كان تحدّياً أن يتابع الناس إذاعة ثقافية... لكنّ أهم حملة إشهارية قام بها مستمعو «مسك» كانت حين توقّف بثّها».

تأسّست «مسك» في صيف 2016 كأوّل إذاعة ثقافية خاصة في تونس، مقترحةً خطّاً سمعياً مختلفاً يضع المتابعين في أفق موسيقى غير استهلاكي، وكانت برامجها أيضاً محاولة للرفع من المستوى العام مقارنةً بما تقدّمه القنوات الإذاعية الأخرى. خلقت هذه الخيارات هوية خاصة بالإذاعة، وإن اتُّهمت بالمبالغة في النخبوية أو التغريب الفنّي، حيث إن معظم المادّة الموسيقية المقترحة كان من الشمال، وإنْ كان ذلك منطقياً باعتبار أن نزعة التجريب تظهر في هذه المنطقة من العالم أكثر من المناطق القريبة من أذن المستمع التونسي، ونحن نعرف حجم التلوّث الذي يطاول الموسيقى العربية اليوم.

فتحَ إغلاق «مسك» ملفّات كثيرة، أبرزها تمويل المؤسّسات الإعلامية وهشاشة المشاريع الثقافية، كما عبّر كثيرون عن اعتقادهم بأن هذا المصير كان محتوماً، ليس لأسباب اقتصادية وتنظيمية فحسب، بل لأنّ الجمهور لم يكن مؤمناً ومقدِّراً للخدمة التي كانت تقدّمها «مسك»، فضلاً عن الجمهور الذي لم يلتفت إليها وهي ترفع راية موسيقى مختلفة عن السائد.

كثيرون قرأوا ما حدث باعتباره انتصاراً للرداءة الثقافية، فالإذاعات الخاصّة التي تقوم على تقديم الخدمات للسياسيين ورجال الأعمال ليست مهدّدة بذات المصير، وكذلك القنوات التي جعلت من البذاءة والكذب تجارةً مزدهرة.

في تدوينة لها، علّقت الإعلامية شيراز بن مراد على إغلاق «مسك» قائلةً: «في نفس اليوم الذي توقّفت فيه إذاعة «مسك» عن البثّ، فتح محلّ قمار جديد أبوابه باحد أهمّ شوارع العاصمة، لينضاف لعشرات المحلّات من هذا النوع. اليوم تنطفئ شمعة ويحلّ مكانها الظلام. اليوم تخفت الموسيقى وتتعالى ثغثغة آلات الربح السريع وسرقة أحلام المغلوبين في بلد لم يعد يهدي الحلم». حين نقف أمام صورة سوداوية كهذه لتونس، وفيها الكثير من الواقعية، لن يكون من الغريب أن تتوقّف «مسك» عن البث، بل إن الأغرب أنها استمرّت في البثّ لخمس سنوات ونصف. بعدها، سيضطرّ مَن لا يحبّ البرامج الحوارية الصاخبة ونشرات الأخبار ومنوّعات التفاهة، أن يغلق الراديو...

ليس غريباً أن تتوقف القناة؛ الأغرب أنها استمرّت لخمس سنوات

جزء من لوحة ضمن سلسلة «دوائر الرماد»، محمد علي حمودة

شعر

سمواتٌ صغيرة زرعتْها النسائم في الثلج

نجمة الكلب

جولان حاجي

المقصّ
بالسبّابة والوسطى
يدُ المنتصر تشتمُّ الموت.

بالسبّابة والوسطى
أرسم على جدار المحطّة
كلباً من ظلّ
نباحه صامتٌ حين تدقُّ النواقيس.

يدي طفلةٌ
تقصّ خيوط المطر.

لا صليلَ لهذا المقصّ.
لا شؤمَ إذا فتحتُه
لتُحيّي به مولوداً وتُخبيه.

طفلةٌ تكلّم يديها، في هذه العتمة،
تقطعُ الحبال التي تسقيني دمَ الماضي.
أصابعها الصغيرة المثلّمة بالغمّازات
تباعدُ شفتيّ.

مترجم روايات «عبير» في أثينا

ندمي هنا ما قلتُه هناك:
«بكائي مخلّصي.
بيني وبينهم هذا الأفق، وحلمُهم قتلي».

مديوناً في بلدٍ مديون،
اتّكأتُ إلى مركبٍ محطَّم ولم أكملْ طريقي.
لم أفارقِ اليونان ففارقني الله حين
اتّمفتُ توبتي
وأواني هذا الأرخبيل وانستني
جِدرانُهُ البيضاء الخفيضة، أبوابه الزُّرق
كسمواتٍ صغيرة زرعتْها النسائم في الثلج.
العينُ تصفو في هواء الجزر
كعقلِ الراهب إثرَ نهارٍ من الصوم،
ولا خوفَ يفسدُ صفوَ الصباح.
لا بروقَ تحرقُ ياقاتِ الغيم.
عيني فرغتْ مما رأت.
الهواءُ النقيّ بشمسِ الهدوء
غامرٌ نظرتي.
بضعُ خطواتٍ تكفي ليتلاحمَ ظلّي وظلُّ صنوبرة،
لأرى تحت جفنيّ
فتاةً تُرخي الجفونَ على عاشقها
تلبسُ قميصاً أخضرَ خفيفاً
يشقّ عن لعوتين خمريّتين كبحر هوميروس
الحلمتان تعلوان وتطولان شيئاً فشيئاً
كقرنَيْ حلزون
في الهواء النديّ
بين عاصفتين رعديّتين.

قسّم سقراط *

وسوريا، نجمةُ الكلب،
ساتبنّى كلباً لا سيّدَ له
صمتُه لا يُشتري
لا يعزّه أحد، لا تُزكمه النفايات،
لا يرتاد المسالخ في الفجر،
لا يتشمّم خُصى الغرباء،
لا يرسم الحدود بالبول،
ينبح على الخائفين في قطار اللغات
الصاعدين من دون بطاقات،
سائباً رافقَ ضائعين في الجبال
ودلّهم نباحه في الغابات إلى طريق النجاة.

■

أريّي في روحي جرواً ضائعاً
يحلم بعظام الكلمات،
شائخَ الملامح
أتخمته بقايا الأفكار التي التهمها
تحت موائد الموتى.

بضعفه أحتمي من الغرباء،
بغضبي المضحك.

يؤنسني في وحشة النزهات
ولا يستطيع حراستي من اللصوص.
سدى أدرّبه على طرد الهلع في ليل النهار:
«انهضْ سِرْ على قائمتيك الخلفيتين.
عُضّ الخوفَ ذا الأيدي المائة.
هُزَّ ذيلك للبقّال إذا ابتسم.
لاطفْ الأطفال حين يتّخذون أشكال شياطين.
افرحْ. انبَحْ...»
سيبقى جروأً ضعيفاً
لا يكبرُ ولا يقوى على النباح.

* في جمهورية أفلاطون، يُقسم سقراط بالكلب مرّتين. قد يكون المقصود هو الإله الفرعوني أنوبيس، البارز في «كتاب الموتى». والقسَم بكلب مصر توكيدٌ القاسم على صواب ما يُفترض. الاحتمال الثاني أضعف، وتأويله على منوال القسَم بمواقع النجوم في القرآن. النجمة الآتية في كوكبة الكلب اسمها «سوريا» لدى الإغريق و«الشعرى اليمانية» لدى العرب.

شاهد الثعلب

تعانقني هاتفاً ملء صدرك:
«مشتاقٌ لك!»
وفي قلبك بصقة.

شهودٌ كثيرون رأونا نمدح الذين حسدناهم
شبّاناً يدخلون المواخير
ويخرجون إلى المستقبل
بدماءٍ زرقاء كعيون الرؤساء
مادّتُها الفيروسات بالموت.

(شاعر ومترجم سوري مقيم في باريس)

منحوتة «كلب» لـ البرتو جياكوميتي (سويسرا)، برونز، 1951 (Getty)

فعاليات

يُفتتح، عند السادسة من مساء غد الثلاثاء، في «غاليري خان المغربي» بالقاهرة معرض **إيقاعات خطّية** للفنان السوري **منير الشعراني** (1952)، ويتواصل حتى السابع عشر من الشهر الجاري. يضمّ المعرض أعمالاً جديدة للفنان الذي درس الغرافيك والخطّ العربي، تحتوي مقولات لعدد من الشعراء والفلاسفة العرب.

ينظّم «نادي الروايات الإنكليزية» في «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة، عند السادسة من مساء بعد غد الأربعاء، لقاءً الشهري لمناقشة رواية **الهدية الأخيرة** للكاتب **الزنجباري عبد الرزاق قرنح** (1948) الذي حاز «جائزة نوبل للأدب» لعام 2021. تدور أحداث الرواية حول مُهاجر من شرق أفريقيا يستعيد في لندن ماضيه وذاكرته بعد إصابته بجلطة دماغية.

حتى التاسع عشر من شباط/ فبراير المقبل، يتواصل في «غاليري ديفيد زويرنر» بلندن معرض **روي ديكارافا: أعمال مختارة**، والذي افتُتح منتصف الشهر الجاري. يضمّ المعرض مجموعة من الصور بالأبيض والأسود يتناول فيها الفوتوغرافي الأميركي من أصل أفريقي (1919 - 2009) يوميات السود في حي هارلم النيويوركي.

خارج الصندوق السحري عنوان أمسية يقدّمها الموسيقي الإيطالي الشاب **جيانكارلو بالينا** عند السابعة من مساء الاثنين المقبل، ضمن فعاليات «موسيقى الآلة» في «دار الأوبرا» بمسقط. يؤدّي بالينا مقطوعات لمؤلّفين مثل باخ ودومينيكو سكارلاتي وإدفارد غريغ بالعزف على الأكورديون، والناي، والدربوكة.